١٨

بقية اليمن
زَيلع - مَقديشو - كِلْوَة - سُفَالة - العبور إلى ظُفَار

لم تطل إقامة ابن بطوطة فى اليمن ، لأنه لم يجد فيه - فيما يبدو - ما تتوق إليه نفسه من الأولياء والصالحين والعُبَّاد الزُّهَّاد ، فهو لم يَزُرْ من هؤلاء هناك إلا قبر شيخ عابد فى زَبيد يُسمَّى أحمد بن العجيل من شيوخ الزيدية، فيتحدث عنه فى سطور ، ثم ينتقل إلى الحديث عن سلطان اليمن بعد انتقاله من زَبيد إلى تعز ، وكانت عاصمة اليمن إذ ذاك .

بنو رسول أصحاب تعز

وكان السلطان هو المؤيد هِزَبْر الدين داود بن السلطان الأشرف عمرو ابن المظفر يوسف بن نور الدين عمر بن رسول ، وقد حكم فيما بين سنتى ١٣٢١ و ١٣٦٣م وهو الخامس من بنى رسول أمراء اليمن . وأصل بنى رسول من العراق، ولكنهم دخلوا فى طاعة الأيوبيين وأصبحوا نوَّابهم فى اليمن ، ثم استقلوا عن مصر سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١ م فى نهاية حكم الملك المسعود يوسف بن الكامل آخر سلاطين الأيوبيين فى اليمن .

تعز

وقد اتخذوا تعز عاصمة لهم ، لأن صنعاء فى داخل البلاد فى منطقة جبال ، فى حين أن تعز على حافة السهل وفى مدخل التلال المؤدية إلى الداخل حيث استقل الزيديون بزعامة إمامهم أحمد بن الحسين ، وكانت صنعاء عاصمتهم وهى على ارتفاع نحو ١٢٠٠ متر عن سطح البحر ؛ وإلى

هذا يرجع اعتدال مناخها ، ثم إن الماء بها أوفر بسبب الرياح الموسمية ؛ ولهذا فهى مشهورة بخضرتها وبساتينها .

وقد لقى ابن بطوطة إكراماً بفضل الشيخ الفقيه أبى الحسن الزيلعىّ وصاحبه قاضى القضاة الإمام المحدِّث صفىُّ الدين الطبرىّ المكِّىّ ، وقدَّمه هذان إلى السلطان ، وقد وصف لنا ابن بطوطة تقاليد سلطان اليمن فى الاستقبال وتسيير الأمور والطعام بما عُرف عنه من الدقة والالتفات للتفاصيل.

ثم انتقل إلى صنعاء ، وقد سبق له أن امتدحها وأَطْرَى أهلها ، وهو يضيف الآن حقيقة جديدة ؛ وهى أن صنعاء كانت كلها مدينة مفروشة، أى : مبلَّطة الشوارع ، فإذا نزل المطر غسل المطر جميع أزقتها وأنقاها .

عـــدن

ومن اليمن اتجه إلى عدن ، ومِنْ أسفٍ أن ابن بطوطة أهمل ذكر التواريخ كثيراً ؛ ولهذا فنحن لا نعلم كم قضى فى اليمن ، وكان نزوله فى عدن عند تاجر يُعرف بناصر الدين الفأرىّ نسبة إلى الفأر .

زيلـع

ومن عدن ركب البحر الأحمر أربعة أيام فنزل زيلع ، ولم تعجبه هذه المدينة قَطُّ لأنها - كما قال - أقذر مدينة فى المعمور وأوحشها وأكثرها نتناً بسبب فضلات السمك التى يتركونها فى الأزقة ودماء الجمال التى يذبحونها ، فيتعفن ذلك كله ؛ ولهذا فقد عَجَّلَ بالرحلة منها .

مقدِشو (مقدِيشو) -البربرة أو الصوماليون

وركب البحر خمسة عشر يوماً ، ونزل مقديشو بعد أن مرَّ ببربرة . وبلاد الزيالعة تمتد إلى حدود مقديشو ، وأهلها وأهل إقليمها يُسمَّون عنده البَربَرة وهم الصوماليون. والزيالعة أيضاً يدخلون اليوم فى عداد البَربَرة .

أُعجب ابن بطوطة بالبربرة أو المقدِشيين ، ووصف لنا تقاليدهم مع التجار، وهى تقاليد جميلة ، فإن المركب إذا صار فى الميناء صعد تجار البلد إليه ومعهم الطعام ، ويختار كل منهم تاجراً من الوافدين يكون نزيله ،

والنُّزالة هنا تتضمن شراء التاجر المُضيف لكل ما مع التاجر الوافد بالثمن الحلال .

وعندما صعد التجار إلى المركب ليختاروا نزلاءهم أو عملاءهم أراد أحدهم أن يكون ابن بطوطة نزيله ، « فقال له أصحابه : ليس هذا بتاجر ، وإنما هو فقيه، فصاح بأصحابه وقال لهم : هذا نزيل القاضى ، وكان فيهم أحد أصحاب القاضى ، فعرَّفه بذلك ، فأتى إلى ساحل البحر فى جملة من الطلبة وبعث إلىَّ أحدهم، فنزلت أنا وأصحابى وسلَّمت على القاضى وأصحابه ، وقال لى : «بسم الله نتوجه للسلام على الشيخ ؛ فقلت : ومن الشيخ ؟ فقال: السلطان » (ص ٢٤٥).

وهذا يؤكد ما قلناه من أن المجتمع الإسلامى كان مقسَّماً إلى مراتب وأصناف، وابن بطوطة فقيه فهو من أهل المراتب ، ومرتبته الفقه والقضاء، فهو - إذن - نزيل القاضى وضيفه ، أما التجار فهم نزلاء التجار ، وهم مرتبة على حدة.

سلطان مقديشو

ويحدثنا ابن بطوطة عن سلطان مقديشو أيام زيارته وهو أبو بكر بن الشيخ عمر ، وهو من البربرة وكلامه بالمقدشى ويعرف اللسان العربى . وعندما أبلغ القاضى السلطان أن ابن بطوطة وافد من الحجاز أرسل إليه السلطان إشارة التكريم وهى أوراق التنبول والفَوْفَل .

والتنبول - كما سنرى - هو القات أو شىء شبيه به ، وكان استعماله شائعاً فى جنوبىّ الجزيرة العربية وشرقىّ إفريقية وبلاد الهند . أما الفَوْفَل فنبات يؤكل معه ، وسيحدثنا عنه ابن بطوطة بعد قليل .

دار الطلبة

ثم أنزلوه فى دار الطلبة ، وهى دار معدَّة لضيافة الطلبة ، وأتوه بطعام جيد هو الأرز مطبوخاً بالسمن فى صحفة خشب كبيرة ، ثم الكوشان وهو الإدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول ، وهم يطبخون الموز

قبل نضجه فى اللبن الحليب ويجعلونه فى صحفة ، ويجعلون اللبن المروب فى صحفة ، ويجعلون عليه الليمون المصبَّر وعناقيد الفلفل المصبَّر، والمصبَّر هو ما نسمِّيه نحن بالمخلل .

ويُختم الطعام بالعَنْبَا وهى مثل التفاح ، ولكن لها نواة ، ومعنى هذا أن صاحبنا ابن بطوطة عاش هناك فى سعة ورغد لمجرد أنه فقيه مسلم نزل فى بلد مسلم ، وهذا يؤيد ما قلناه من ترابط أمة الإسلام .

ثم يصف لنا لباس الناس والسلطان ؛ فكسوةٌ هى فوطة يشدها الإنسان فى وسطه - عِوَضَ السراويل فهم لا يعرفونها - ودُرَّاعة من المقطع المصرى معلَّمة ، وفرجيَّة من القدس مبطَّنة ، وعمامة مصرية معلَّمة ، وهنا ترى كيف كانت الملابس أيضاً من صنع بلاد الأمة الإسلامية ، وكذلك كان لباس السلطان وإن كان أفخم .

بلاد السواحل

ثم ركب البحر من مقديشو متوجهاً إلى بلاد السواحل ، ويراد بها شرقىُّ إفريقية ، وهذه أول مرة نقرأ هذه التسمية لهذه الجهات . ومنها نعرف من أين أتى اسم اللغة السواحلية وكانت وجهته كِلْوَة من بلاد الزنوج كما يقول ، ومرَّ فى طريقه بمُمْبَسَّة ، وهى جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين فى البحر ، وأهلها شافعيو المذهب ، أهل دين وعفاف وصلاح ، ومساجدهم من الخشب محكمة الإتقان .

مُمْبَسَّة

كلـوة

ثم ركب البحر إلى كِلْوَة وهى مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ، ولهم شرطات فى وجوههم كما هى فى وجوه الليميين من جنادة .

وذكر له بعض التجار أن مدينة سُفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كِلْوَة ، وأن بين سُفالة ويونى من بلاد الليميين مسيرة شهر ، ومن يونى يؤتى بالتِّبر إلى سُفالة . هذا ولم يستطع أحد تحقيق أعلام الليميين وجنادة ويونى إلى الآن .

وكان سلطان كِلْوَة إلى الجنوب من زنجبار هو أبو المظفر حسن ويُكَنَّى أيضاً أبا المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه ، وكان هذا الرجل يغزو أرض الزنوج ويغنم منهم، ويُخرج الخُمْس ، ويصرفه فى مصارفه الشرعية ، ويجعل نصيب ذى القربى فى خزانة على حدة ، ويصرفه لمن يأتيه من الشرفاء ، ولهذا فقد كان الكثيرون منهم يَفِدون عليه ، وقد رأى ابن بطوطة عنده بعض آل جَـمَّـاز وآل نُمَى شرفاء الحجاز وحكامه .

ومن طريف ما يحكى ابن بطوطة أن أبا المواهب مات وخَلَفَهُ أخوه داود ، وكان على عكسه لا يعطى أحداً شيئاً ، فإذا أتاه سائل قال له : مات الذى كان يعطى ، ولم يترك من بعده ما يُعْطَى !

ظـفـار

ومن ساحل إفريقية الشرقيّ عند زنجبار قطع ابن بطوطة البحر إلى ظُفَار من أرض عُمَان ، ولم يذكر لنا كيف قطعه أو فى أىّ مدة تم له ذلك ، ولكنه يقول إن المسافة من ظُفَار إلى قاليقوط - من ساحل الهند - تُقطع فى شهر مع الرياح الطيبة ، والمسافة من كِلْوَة إلى ظُفَار تبدو على الخريطة كالمسافة من الهند إلى ظُفَار ، أى أن هذه الرحلة البحرية دامت شهراً دون أن تكون لدينا عنها أىُّ تفاصيل .

ومثل هذا عند ابن بطوطة كثير مما يُلقى ظلالاً من الشك على بعض فترات رحلته ، ولكننا لا نستطيع اتهامه بالادعاء ، لأن الحقائق التى ذكرها عن ساحل إفريقية الشرقيّ صحيحة تطابق الواقع ، وتدل على مشاهدة عيان ، وكذلك ما يذكره عن ظُفَار وأرض عُمَان فلا يبقى أمامنا غير التصديق ! .

* * *